

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات

– دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالملة، الجزائر –

Rituals of bowing in marriage, practices and semantics: An anthropological study in HammamN'bail, Guelma, Algeria

حليمة رزايقية¹، فاطمة رزايقية²

¹ جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة (الجزائر)، halima.rezaiguia@univ-saida.dz

² جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، fz68207@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/12/17 تاريخ القبول: 2024/01/07 تاريخ النشر: 2024/03/28

ملخص: يتجلى التراث الشعبي المادي واللامادي في أسلوب حياة المجتمعات وأشكال تفاعلهم من ممارسات وشعائر عقائدية وطقوس، ومختلف أشكال التواصل الرمزي. واهتمت الدراسة بمجتمع نحسبهم تأصلا في ثقافة جزائرية عامة، لكنه يتميز بخصوصياته الثقافية المحلية، تراثه الشعبي، تقاليده وعاداته، إنه مجتمع منطقة "حمام النبائل" بقالملة. وهذا بالتعرض الى ممارسات متميزة يبرز فيها استعمال مادة الحنة، حيث لا تزال الحنة أثرا من المأثورات الشعبية التقليدية المتداولة في المنطقة، على غرار باقي المناطق والتي ارتبط وجودها بمناسبات معلومة كالعرس والختان، حيث تعود في بنيتها للأزمة تاريخية بعيدة. والتي وصلت إلينا بفعل عملية التنشئة والتواصل الثقافي بين الأجيال، وإحياء مثل هذه الاحتفالات لا يزال يقام إلى يومنا هذا، ضمن عادات وتقاليد المنطقة، عبر جملة من الممارسات المعروفة في اقتنائها وتحضيرها واستعمالها. هدفنا الدراسة للبحث في الدلالات الرمزية لهذه الممارسات في الوسط الشعبي لسكان المنطقة، واستخدمت الدراسة المنهج الإثنوغرافي ملائمة طبيعة موضوع الدراسة، كما استعانت الدراسة بأداة الملاحظة بالمشاركة لجمع المعلومات والبيانات عن الموضوع.

الكلمات المفتاحية: الطقوس، التحنية، الممارسات، الدلالات، الرموز.

Abstract: Folk heritage, both tangible and intangible, is represented in their cultures' customs, rites, and rituals, as well as their various modes of communication, when cultures interact. The community of "HammamN'bail" in Guelma is known by its own cultural features and folklore. Through revealing activities in which the use of henna is distinguished, it is still one of the traditional folk traditions circulating in the region, in its structure, it dates back to a long history, known by the process of upbringing and cultural exchange between generations. Celebrations are still practiced today within the framework of regional customs and traditions, using a variety of well-known methods in their acquisition, preparation, and use. Because of the nature of the subject matter, an anthropological method was employed for the study. A participatory observation method was also used to collect information and data for the study.

Keywords: The rite, bows, practices, semantics, symbols.

المؤلف المرسل: حليمة رزايقية، الإيميل: halima.rezaiguia@univ-saida.dz

حلمة رزائية - فاطمة رزائية

1. مقدمة:

لا تزال الحنة أثرا من المأثورات الشعبية التقليدية المتداولة، في منطقة حمام النبائل^(*) بقالملة، على غرار باقي المناطق والتي ارتبط وجودها غالبا بمناسبات معلومة كالعرس والختان. واحياء مثل هذه الاحتفالات لا يزال يقام إلى يومنا هذا، ضمن عادات وتقاليد المنطقة، عبر جملة من الممارسات المعروفة في اقتنائها وتحضيرها واستعمالها.

فلأجواء الاحتفالية كباقي الأنساق الاجتماعية الأخرى، شهدت التغير والتحول في بعض من عناصرها وأنماطها، إلا أنها ولاشك مازالت تحافظ على جملة من العناصر والأنماط الأخرى التي لا يزال استمرارها حتى وقتنا الحالي متأصل في ثقافة المنطقة.

ولا يزال احتفال العرس يحتوي على كثير من الممارسات والطقوس والرمزيات، التي تعود في بنيتها إلى أزمنة تاريخية بعيدة والتي وصلت إلينا بفعل عملية التنشئة والتواصل الثقافي بين الأجيال.

من المشاهد التي تعود عليها الحضور في مراسيم الأعراس التحنية، وهي سلوكات وممارسات لدى الجماعة وتفاعلات بين أفرادها ترتبط بمادة الحنة، وبالأهمية الرمزية التي تولي بها، لاعتبارات ودلالات ترتبط بأهمية الحدث والاهتمام الكبير الذي يوليه أفراد المجتمع، الى حد أنهم يلتزمون بكل المستوجبات المتعلقة بها ولا يتأخرون أبدا في استثمار كل طاقاتهم المادية والمعنوية لأجل إنجاحها.

ذلك الاهتمام والحرص الشديد بمراسيم التحنية لاشك أن له مبرراته ودلالاته، كما لاستعمال الحنة كمادة له دواعي واعتبارات، تلك هي النقاط التي شغلت تفكيرنا ضمن هذه الدراسة، واحتوتها جملة من الاستفهامات العلمية كان محورها التساؤل الرئيس التالي:

* ماهي الممارسات والطقوس التي تحيط بالتحنية في العرس، وما هي الرمزيات والدلالات التي تعكسها؟.

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حام النبائل بقالة
وللإجابة على هذا الإشكال اعتمدنا المنهج الاثنوغرافي لجمع أكبر عدد ممكن من معطيات حول موضوعنا، كما استعنا بتقنية الملاحظة بالمشاركة للتغلغل في مجتمع دراستنا وفهم الدلالات والطقوس المحيطة بالحنة في العرس ومحاولة فك شفرة الرموز من خلال الفاعلين في هذه الممارسات. وقد كان ذلك في صيف 2015 حيث تقام الاحتفاليات بكثرة وبذلك يكون الميدان خصبا لجمع معطياتنا حول موضوع الدراسة. حيث هدفت الدراسة إلى قراءة الممارسات بعينها قراءة اجتماعية/ ثقافية في إطار العادات والتقاليد المحلية، التي تساهم في تحديد معالم الشخصية الثقافية للمنطقة، وكذلك التدوين والتسجيل والتعريف بجزء من ثقافة هذه المنطقة والتعرف عن قرب إلى مثل هذه الممارسات.

2. بعض المرجعيات السابقة للدراسة:

ارتبطت الدراسات التي اعتمدها بحثنا في مجملها حول الحنة كتراث ثقافي في المجتمعات، والاحتفاليات بشكل خاص، من بينها:

* استمرارية ثقافة الحناء في محافظة "كوليكورو" بمالي. من إعداد الباحثة: مالي كادياتو سنة 2011، حيث تناولت هذه الدراسة موضوع الحناء واستمراريتها في الثقافة المحلية للمنطقة وأهميتها الاقتصادية، كما تناولت فعالية هذه المادة من حيث الاعتقاد السائد حولها عند المجتمع المالي، ودور النساء في إنتاج هذه المادة فهي نبتة مقدسة بالنسبة لهم فضلا عن أنها تساهم في الإنتاج الوطني بشكل كبير، إذ تمثلت أهمية هذه الدراسة بالنسبة لبحثنا في التعرف على الحناء كمادة وعن فوائدها العلاجية والتزيينية وأهميتها في الحياة الثقافية والاقتصادية في المجتمع المدروس.

* الحناء وظائفها وطقوسها الاجتماعية بقرية بللوران الساحلية بسوريا سنة 2010، قام بهذه الدراسة مجموعة من الباحثين: عز الدين دياب، كامل عمران، ايفا سليمان حزم، حيث تناولت هذه الدراسة أهمية الحناء كونها إحدى الطقوس الاحتفالية التقليدية بالزواج، بما تحمله من معاني وما تؤديه من وظائف اجتماعية وعلاجية وتزيينية وحتى نفسية. تمس حياة العروسين ليلة قبل زواجهما.

حلمة رزايقة - فاطمة رزايقة

أفادتنا هذه الدراسة في عدة جوانب وكانت بمثابة دليل في بحثنا خاصة من حيث الجوانب المنهجية في التعامل مع موضوع بحثنا.

* مراسيم الزواج بمدينة قسنطينة، لفريال عباس، حيث حاولت الباحثة في دراستها وصف وتحليل كل ما يحدث خلال مراسيم الزواج والكشف عن السر الثقافي والاجتماعي الذي يجعل العائلات تصر على مثل هذه الممارسات، أي أنها حاولت إبراز الوظائف التي تؤديها هذه المراسيم بالتفصيل من الخطبة والصدّاق والفاخرة والجرية وطقس الحنة ...

حيث كانت جوانب الاستفادة من هذه الدراسة في كيفية البناء المنهجي مع موضوعنا، وكذا كيفية تطبيق تقنيات جمع المعطيات من ميدان الدراسة وخاصة الملاحظة بالمشاركة، وكيفية التعامل مع أحداث الاحتفال ووقائع التحنية فيها.

1.2. مراسيم العرس في منطقة الدراسة:

قبل الحديث عن ممارسات الحنة في العرس ودلالاتها، يتحتم علينا أن نعرف بمراسيم وحشيات العرس في منطقة حمام النبائل بصفة عامة.

فبعد المراسيم التحضيرية للزواج من خطبة، وفاخرة، وعقد القران، تأتي المراسيم الأساسية والتي تتم خلال أربعة أيام وعادة ما تكون أيام (الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة).

1.1.2. اليوم الأول (شاة حلال)

وهو ما يسمى محليا بـ "شاة حلال" ويوافق هذا اليوم عادة يوم الثلاثاء، حيث يذهب فيه أهل العريس إلى بيت العروس في موكب مكون من أب العريس وأمه ومجموعة من النساء والرجال كبار في السن. حيث يأخذون معهم شاتين من الغنم، وأحيانا أخرى كبش، مرفوق بكل أنواع الخضروالفواكه والمواد الغذائية، ماعدا الفلفل الحار من الخضر والقهوة من المواد الغذائية، وعند استفسارنا عن عدم أخذ هذين العنصرين أجابتنا السيدة "ع ف(52 سنة، تقطن بمنطقة الدراسة)": "مايمنوش ندوهم لخاطر الفلفل يفسد

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقلمة
لحوال والقهوة تكحل لقلوب" أي أنه لا يجذ أخذها لاعتقادهم أنهما يمثلان رمزاً لإفساد العلاقات بين الزوجين وبين العائلتين.

وعند وصولهم إلى بيت العروس يتناولون القهوة ثم يقوم أهل العريس بذبح الشاتين، ثم يأكلون الشواء من الشاة المذبوحة وبعدها يرجعون إلى البيت.

وفي مساء ذلك اليوم يذهب موكب آخر من أهل العريس لإحضار جهاز العروس والذي يسمى بـ "الشورة" وهي ماتأخذها العروس معها إلى البيت زوجها مكونة من الأفرشة والأغطية والملابس...، في جو بهيج من الغناء والزغاريد، و"الطبلية والزُرنة" والتي تكون حاضرة دائما في هذه الأمسية وعند وصولهم يبدؤون بتحميل "الشورة" في شاحنة مزينة بالورود، ويكون ذلك تحت وقع الزغاريد وأصوات البارود.

وبعد هذا يأخذون "الشورة" وتأتي معهم أم العروس وأختها لترتيب جهاز العروس وفي غالب الأحيان لا يتركون أحداً يقترب من الجهاز وخاصة النساء المتواجدين من أهل العريس.

ومن خلال معاشتنا لميدان دراستنا وملاحظاتنا المتكررة لمثل هذه الأحداث غالبا ما يحدث نزاع بين الطرفين (أهل العريس وأهل العروس) وهذا مخافة إلحاق أذى أو سحر لابنتهم عن طريق جهازها.

فبعد ترتيب الجهاز يغلق الباب بإحكام وفي أغلب الأحيان تأخذ أم العروس مفتاح الغرفة الذي وضع بها الجهاز.



حلمة رزايقية - فاطمة رزايقية

وفي مساء هذا اليوم تقام سهرة عند أهل العريس بحضور الأهل والأقارب. وتكون فرقة "الرحابة" حاضرة في كل ليالي العرس: حيث تتكون من ستة أو ثمانية أشخاص يكونوا متقابلين بالتساوي، ثلاثة مقابل ثلاثة وتارة يقتربون وتارة يبتعدون متشابكين بأذرعهم ويضربون أرجلهم على الأرض مرددين بعض الأغاني والمدائح، بلباس تقليدي متمثل في "الرزة" أو "الشاش"، وهي قطعة من القماش توضع وتُلف على الرأس، وكذلك القندورة وفوقها البرنوس، الرحابة هي سنفونية جميلة تجمع بين الغناء وحركات الأرجل في انسجام وتناغم رائعين.

ومن بين الأغاني والمدائح التي يرددوها الرحابة والتي يغنيها لنا أحد أعضاء فرقة الرحابة: "إع" (72 سنة، عضو من فرقة الرحابة) أغنية الحمامة باللهجة المحلية للمنطقة والتي يقول فيها:

يَا مُحَمَّدُ يَا وَلِيدَ مَا

يَا لُدُّرُكَ مَا شَفَّكْشُ حَالِي

أَنْتَ تَرْحَلُ وَأَنَا نَتَّبِعُ

رَائِي نُعَلِّي فِي الصُّورِ الْعَالِي

يَاوُ لَحْمَامَةَ وَيَايَ وَيَايَ فِي لُغْرَفَةِ

وَالصَّيَّادُ جَانِي عَالِي

يَا مُحَمَّدُ يَا وَلِيدَ مَا

وَأَنْتَ طَالَعٌ مَعَ الْعُقْبَةِ

وَالْعَرَقُ نَشَفَ فِيهِ

وَلَمِيمَةَ تَنْشُدُ عَلَيْكَ

عَلَيْتِي الصُّورُ الْعَالِي وَلَا لَا

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة



وما نلاحظه على هذه المراسيم في الآونة الأخيرة شهدت بعض التغيرات على المستوى الشكلي، فأصبح هناك مزج بين القديم والحديث، وذلك نتيجة "ازدياد الاحتكاك بين الثقافات المختلفة والمجتمعات المختلفة.... فإنّ كل الثقافات الأصلية -تقريباً- دخلت في عمليات اتصال مع ثقافات وحضارات أخرى" (غانم، 2004، صفحة 192).

معنى هذا أنّ أي مجتمع هو مضطر ليتلبس بالحدثاء "وهي ذات تواتر زمني يتجاوز ذاته باستمرار عن طريق نفي ماضيه وأزمته السحيقة (التقليد) بل عن طريق صوغها وإعادة عجنها ضمن تركيبة جديدة يمثلها المستقبل" (الشيخ، 2005، صفحة 278).

أي أنّ المنطقة حافظت على تراثها التقليدي في الأعراس ولكن ألبسته حلة جديدة تتوافق ومتطلبات الوقت الحالي، فمثلاً أصبحت حيثيات ومراسيم التحنية وكذا أدوات الحنة بحلة جديدة، حيث أن طبق الحنة أصبح يشترى جاهزاً بجميع لوازمه من مادة الحنة، الطبق الذي تخلط فيه...

أما في بيت العروس؛ تقام حفلة في هذه الليلة للعروسة وصديقاتها في جو مليء بالفرح والبهجة وترقص العروس مع صديقاتها ويغنون أغاني جميلة، كما يلعبون لعبة البوقالات ثم بعدها تحني رجليها تحضيراً لليوم الثاني.

2.1.2. اليوم الثاني (لعطية):

حلمة رزايقية - فاطمة رزايقية

ويسمى بـ "لعطية" وهو اليوم الذي يحني فيه أهل العريس للعروسة ويأخذ عدة تسميات في المناطق الأخرى في الجزائر مثلا: الجرية، الدفع، الهدية...و سوف نتحدث على هذا لاحقا كونه جزء مهم من موضوع دراستنا.

3.1.2. اليوم الثالث (العرس):

وهو اليوم الذي يأخذون فيه العروس إلى بيت زوجها، حيث يحضر أهل العريس وليمة عشاء، ويدعوا الأهل والأقارب والجيران... في أغلب الأحيان يكون "الكسكسي والجاري" من الأطباق الرئيسية في هذه الوليمة، إضافة إلى بعض المقبلات، مع تناول القهوة والحلويات مساء، فيتوافد الأهل والأقارب والأحباب الذين تمت دعوتهم مسبقا ليحضروا أنفسهم فرحين مباركين وحاملين معهم الهدايا المتمثلة غالبا في مبلغ مالي وهو ما يسمى بـ "الحسوب"، فتجلس النساء مع بعضهن ؛ يزغردن ويصفقن ويرقصن... وكلهم فرحا وسرورا مع أهل العرس كما يجلس الرجال مع بعضهم يتحدثون ويمرحون.

وبعد الانتهاء من تجهيز مركب السيارات تتقدم سيارة العروس المرصعة بالورود والأزهار التي يركب فيها أب العريس أوجده وكذلك أخته أو أحد القريبات بينما يركب في باقي السيارات بضعة نساء من أهله وأقربائه فينطلقون متجهين إلى بيت العروس لإحضارها إلى بيتها الجديد، بعد أن تكون قد ذهبت إلى الحلاقة وحضرت نفسها وارتدت ثوب الزفاف الأبيض ويذهب الكورتاج إلى بيت العروس وبعدها تنزل أخت العريس أو ما تعرف بـ "القوادة" ومعها قليل من النسوة، ثم تخرج العروس من بيت أهلها رفقة أختها وأخت العريس حاملين شموعا مضيئة في جو مليء بالأفراح والزغاريد.

وتخرج العروس تحت ذراع أبيها حيث يكون الأب واضعا ذراعه على حافة الباب فتطأطئ رأسها وتمر تحت ذراعه إذ يرمز هذا السلوك إلى أن البنت مطيعة لأبيها طيلة تواجدها، فتتركب العروس ومن معها في السيارة المخصصة لها ويركب الأقارب من أهلها ومن أهله، ويرجع الركب في فرح وسرور، وعند وصولها

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة
تستقبلها أم العريس في الباب حاملة قطعة قماش خضراء وتلوحها يمينا يسارا فكما يقول أهل المنطقة على
هذه السلوك "يشوروا على العروس"

ودلالة اللون الأخضر هو الاعتقاد بالرفاهية والعيش السعيد، كما يرمون السكر والحلوى، وماء
الزهر ويغنون بعض الأغاني والأشعار، من بينها: "أدخلي بالمال والذرية" وكذلك:

"أريح أريح يا الرابع

والفال يقول انشاله

وتريح مرت وليدي

وتربي لولاد انشاله

هذي مرتك يا وليدي

ومن لبنات خترتها

حيث تجلس النساء في مكان واحد-الأعراس في هذه المنطقة تتم في المنازل-وبعد ذلك يتناول
الجميع وجبة العشاء، وعند انتهائهم يعودون للرقص والغناء.

وخلال هذه الأثناء يحضرون وجبة عشاء العروس المتمثل في "المسلان" تتناوله مع صديقاتها هذا
بالنسبة للفضاء النسوي.

أما بالنسبة للرجال، فبعد تناول المعازيم وجبة العشاء يذهب الجميع إلى المكان المخصص للغناء
فتكون في هذه الليلة فرقة موسيقية حاضرة وتكون في الغالب ذات طابع شاوي متمثلة في "القصة
والبندير"، أما بالنسبة للعريس وأصحابه فيذهبون إلى الحمام في جو بهيج من الغناء واللهو وعند العودة
يتناولون العشاء ومن ثم يحيي العريس مع أصحابه، وبعدها يبدأ المعازيم في المغادرة، وبعدها يأخذ العريس
عروسته إلى مكان آخر بعيد عن مكان إقامة العرس.

4.1.2. اليوم الرابع (الصباحة):

حلمة رزايقية - فاطمة رزايقية

في صبيحة هذا اليوم يرجع العريس والعروس إلى البيت حيث تدخل العروس على وقع الزغاريد والبارود والنساء تبارك لها، ثم تبدأ النساء في تحضير "الرفيس" ويوزع على جميع الحضور مع القهوة. ومن طقوس وعادات هذه المنطقة في هذه الصبيحة "الحزام" وهو أن يقوم ولد صغير بوضع الحزام على نطاق العروس وبعد ذلك يسلم عليها وتعطيه مبلغ من المال. فاختيار الولد للقيام بهذه المهمة فآل خير وترميز لإنجاب الذكور (باش ربي يعمر عليها) على حد تعبيرهم.

وبعدها تبدأ العروس في "التصديرة" أي أنها تلبس جميع ما لديها من ألبسة تقليدية وعصرية، وبعدها تحضر أم العروس الغداء للحضور، ثم يبدأ المعازيم في المغادرة، داعين للعروسين والأهل بالخير والبركة.

2.2. الممارسات الخاصة بحنة العروس

1.2.2. وصف الممارسات التحضيرية:

في هذا اليوم يكون الاحتفال عند العروس ويسمى هذا اليوم بـ "لعطية" كما ذكرنا سابقاً. وجرت العادة أن "تبدأ احتفالات المسلمين قبل يومي الاثنين أو الجمعة بثلاث أيام، وقد اختصا دون بقية الأيام بالبركة وحسن التوفيق والسعادة" (هاني، صفحة 153).

تقام حفلة الحنة يوم الأربعاء الذي يسبق مباشرة يوم الزفاف، حيث يذهب أهل العريس إلى بيت العروس محضرين أنفسهم وحاملين معهم "كسوة العروس" وأدوات الحنة، والقشقةشة (وهي خليط من الحلوى والمكسرات)، وقصعة الحنة الممتلئة في نوع من أنواع الرفيس في المنطقة وتؤخذ كهدية للعروس.

وعند وصولهم إلى بيت العروس تزغرد أم العريس وتعطي مبلغ من المال لأم العروس وهذا تقديراً على شرف المصاهرة.

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة



وبعد الاستقبالات الحارة من أهل العروس يتناول الجميع القهوة مع الحلويات وما لذ وطاب من العصائر؛ والطريف في هذا أنه في هذه الأثناء تقوم أم العريس أو أحد عماته بسرقة فنجال شريطة ألا يراهم أحد من أهل العروس لاعتقادهم في هذا أن العروس لن تطلق. ثم يذهب الجميع إلى مكان الموسيقى والغناء.

2.2.2. الممارسة الطقوسية في ربط الحنة:

تأتي العروس رفقة فتاتين حاملين شموعا. وجرت العادة في منطقة حمام النبائل أن تقوم الأم أو إحدى قريبات العريس بمزج حنة العروس شريطة أن تكون امرأة غير مطلقة، ولودة، حسنة الأخلاق، وفي بعض الأحيان العروس هي من تختار المرأة التي تخلط لها الحنة من الحضور.



حلمة رزايقية - فاطمة رزايقية

3.2.2. طقوس ربط الحنة:

تخلط حنة العروس بماء الزهر والسكر، ماء الزهر لكي يكون للعروس الحظ في حياتها الزوجية أما السكر حسب اعتقادهم بأنه رمز للحلاوة والسكينة والفوز في مجالات الحياة، وهذا ما أشار إليه "بن مشرّن نور الدين" في بحثه استعمال السكر في هذه الممارسات الشعبية المرتبطة بالزواج معناه أن الناس يريدون أن يعيش الزوجان عيشة سعيدة، قوامها الحب والمودة بين الزوج وزوجته " (بن مشرّن، 2000/1999، صفحة 49).



وهناك من يمزج الحنة بقليل من الحليب فهو يرمز إلى الخصب والوفرة والخلود، كما يرمز إلى النقاء والصفاء والطهارة لأنه ذو لون أبيض ناصع. بعد مزج الحنة تزين بجبات من الحلوى وتوضع في وسطها شمعة ذات خمسة أصابع وهذا لدرأ الحسد والعين على العروس.

وبعد الانتهاء من هذه التحضيرات يجب أن توضع الحنة في يد طفل صغير أولاً يحمل اسم "محمد، أحمد، أو عبد الرحمان أو... وذلك للبركة وفأل خير لإنجاب ذرية صالحة، كما أن لهذه الأسماء عدة دلالات عقائدية، ثم يبدأ تخضيب يدي العروسة حيث يبدؤون باليد اليمنى أولاً وذلك للبركة والخير، فتوضع الحنة في يد العروس على أن تكون خيراً وبركة على تلك العائلة (عائلة الزوج فكما يقال -أن تكون قصة خير).

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حام البائل بقالة وبعد وضع الحنة في يدي العروس والتي تكون على شكل قرص دائري تشبها بالقمر في اكتماله لما له من خير وبركة. فهم يعتقدون أن لهذا الشكل دلالة معينة حيث أن العروس التي يكون الشكل مشوها تعيش حياة تعيسة.

ومن ثم توضع قطعة من الذهب فوق الحنة والمتمثلة في (الوزن) وذلك لقيمتها الجمالية والنقدية وفيه رمز لعلو مكانة العروس.

وأحيانا أخرى توضع حبة من الحلوى ودلالة هذا كدلالة السكر عند وضعه أثناء مزج الحنة كما ذكرنا سابقا، ثم تربط يدي العروسة بقطعة قماش مخصصة لذلك.

وأثناء ربط الحنة تحمل فتاتان شمعتين كبيرتين إحداهما على اليمين والأخرى على اليسار، واستعمال الشموع هنا إشارة للضوء والنور كما أنه رمز للطهارة والنقاء لأنه يطرد الظلام وذلك حسب اعتقادهم ويبعد الأرواح الشريرة، كما يعتقدون في ضوء الشموع أن تكون كل أيام العروسين نور على نور.

ويتخلل هذه الممارسات الكثير من الأغاني والمدائح وتكون من بداية وضع الحنة في الصحن حتى نهاية عملية التحنية.

4.2.2. الأغاني الشعبية ودلالاتها في حنة العروس:

تكون هذه الأغاني من بداية تحضير الحنة إلى أن توضع على يد العروس وفي العادة تقوم بأدائها امرأة كبيرة في السن ومن بين هذه الأغاني نجد:

صلوا على محمد وزيدو صلوا عليه

وحبيبي محمد خيالي ما نقول

صلوا على محمد يا النبي العربي

هذا فرح مجد كمل يا ربي

حلمة رزائية - فاطمة رزائية

نلاحظ أن الأغاني تبدأ بالتبرك والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ذا النسب العربي الأصيل والذي تعود العرب أن يفتخروا به في أي مناسبة سعيدة أو أي فرح لكي يبارك لهم في أعمالهم، والتضرع إلى الله بإكمال الفرحة بكل خير، وتستمر في التسليم على النبي الذي اختاره الله من دون المخلوقات. وبعد وصف العروسة تتبرك المغنية بوصف الحنة التي جاءت بها من مكة لتحني بها العروسة، وهي في وسط أحبابها.

كما أن هذا يدل على التمسك بالدين الإسلامي وبالأماكن المقدسة.

كما أن هناك بعض الأغاني الأخرى نذكر منها:

الحنا يا الحنية جنبناها من فرانس

تربطها بنتي لعزيزة وتلم التاوسة

الحنا يا الحنية جنبناها من باري

تحني بيها لبنية وعقوبة لذراري.

فما نستشفه من هذه الأغاني هو جعل الحنة كواسطة للدعاء بالخير والبركة والإنجاب للعروس.

3.2. الممارسات ودلالاتها بعد حنة العروس:

وبعد الانتهاء من عملية التحنية والملفت للانتباه أن الحنة التي تحني بها العروس لا يجوز لأحد أن يقترب منها، وتقوم أم العروس أو أختها بغسل الصحن مباشرة أو دفن الحنة المتبقية في التراب في مكان حيث لا يراها فيه أحد، وفي بعض الأحيان يغسل الصحن بالخل اعتقاداً منهم أن الخل يقضي على السحر كما يقال "أنه يفسخ السحر".

فالاهتمام بغسل الصحن مباشرة أو إخفائه بعد التخضيب طقس وقائي يحمي العروس من التعرض للسحر. وفي بعض الأحيان يقومون بكسر صحن الحنة وذلك لاعتقادهم أن السحر والشر ينكسر بانكسار الصحن.

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة

وما شد انتباهي في إحدى حفلات الحنة أن أم العروس لا تثق حتى في أدوات الحنة التي يحضرها أهل العريس، فتذهب وتحض صحنًا لكي تمزج فيه الحنة وهذا للحذر الزائد من إلحاق ضرر بابتها مع إصرارها على التحنية فيه إلى أن وقع جدل بين أم العروس وأم العريس.

وتبقى ليلة الحنة من الليالي الجميلة في منطقة حمام النبائل "والتي تبقى راسخة في ذهن العروس وهي ليلة الوداع وآخر ليلة تمضيها العروس في حضن بيتها" (عبد الحاتم، 1999، صفحة 145).

كما تستعمل الحنة في تأخير الإنجاب، فإذا أرادت العروس ألا تنجب مبكرًا تقوم بغمس أصبع واحد في صحن الحنة إذا أرادت تأخير حملها سنة، وتغمس أصبعين إذا أرادت تأخير الحمل سنتين.

كما يمارس طقس آخر وهو: "قلب صحن الحنة للمدة التي ترغبها العروس في تأخير حملها، فتقوم أم العروس بقلب الصحن لمدة يومين إذا أرادت العروس تأخير حملها سنتين وتبقيه مقلوبًا ثلاثة أيام إذا أرادت تأخيرها ثلاث سنوات، ويتم هذا القلب بعيدًا عن أعين الناس كي لا يسرقها الأعداء لاستخدامها لأغراض مؤذية كسحر العروس وجعلها عاقرا طوال حياتها" وهذا ما ورد على لسان إحدى المسنات.

فبعد إتمام كل هذه المراحل وفي هذه الأثناء تضع أم العريس هدية الذهب وتضعها فوق رأس العروس والمسماة بـ "البطة" في المنطقة وهذا دليل علو مكانة العروس بالنسبة لأهل العريس ثم تلبسه إياها.

ثم تحمل أم العريس حفنة من الحلوى وتضعها فوق رأس العروس ويعتقد أهل المنطقة أن الحبات المتبقية هم عدد الأولاد الذين ستنجبهم العروس.

وكل هذا في جو مليء بالزغاريد والغناء والرقص والفرجة، حيث تأخذ العروس حفنة من القشقة وترميها وراءها ويعتقدون أن من تمسك بعدد أكبر من المكسرات والحلوى هي من تخطب أولاً.

ثم تبدأ أم العريس أو أخته بعرض الهدايا التي أتوا بها للعروس أمام الحضور ليراها الجميع، تبدأ النساء والفتيات بالتسليم على العروس والمباركة لها وإعطائها الهدايا.

وبعد تقف العروس للرقص مع صديقاتها.

حلمة رزايقية - فاطمة رزايقية

ولأن حنة العروس ومكان جلوسها رمز للفأل وجلب الحظ السعيد فعند وقوف العروس تبدأ الفتيات غير المتزوجات في التسابق إلى مكان جلوس العروس، وذلك ليكون فأل خير عليه وينحطبن في اقرب الآجال.

للحنة مكانة خاصة منذ القديم، وظاهرة الاهتمام بالحنة في ليلة الزفاف ظاهرة منتشرة في أغلب أنحاء العالم وتنتشر هذه العادة بدرجة كبيرة بين نساء البربر في شمال غرب إفريقيا وفي شمال شرق القارة ولا تزال هذه العادة قائمة" (إبراهيم، 1965، صفحة 262)، كما أن استعمال الحنة في الأعراس من الطقوس القديمة التي لا زالت تمارس إلى يومنا هذا، وهي تمتد من المحيط الأطلسي إلى الهند.

ففي عمان مثلاً تهنم العروس بالحنة، حيث تنقش كلتا يديها وقدميها، بأشكال وخطوط كلاسيكية، وما تتصف به في مثل هذه المناسبة الخاصة من رقة وأنوثة شكلاً ومعنى.

أما في مصر أنها اللحظة الحاسمة بالنسبة لكل عروس، لأنها تكون آخر ليلة تقضيها في منزل أبيها، ولذلك تحتفل بها الأسرة وتجعل منها ليلة وداع، فتدعوا النساء والفتيات من الأقارب والجيران لشرب المشروبات وأخذ نصيبن من الحنة (دياب، 1970، صفحة 289).

وفي المغرب أيضاً، تعتبر الحنة من مستلزمات حفل الزفاف المغربي حيث يخصص يوم كامل لحنة العروس، وتنقش كلتا يديها ورجليها، ويعتبر التحلي عن هذه العادة في المعتقد الشعبي نذير شؤم بالنسبة للعروس في حياتها الزوجية.

كما ساد الاعتقاد في الأساطير القديمة أن استعمال العروس للحنة ليلة الزفاف "يعود لكون لون الحنة يشبه الدم، وكفداء وتعويض لدم البكارة التي تفقدها العروس هذه الليلة" (محمود، 1995، صفحة 95).

ولا يزال هذا الاعتقاد سائداً في مجتمع دراستنا. حيث تقول السيدات: "يقولوا الحنة تعوض الدم تاع ليلة الدخلة" وهذا ماقالته هذه السيدة حين استفسرت لماذا الحنة بالذات وليست مادة أخرى؟. يعني أن للحنة علاقة بدم بكارة العروس حسب اعتقادهم.

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة

3. الممارسات الخاصة بحنة العريس

تكون التحنية للعريس في منطقة حمام النبائل في الليلة من يوم الزفاف.

1.3. وصف الممارسات التحضيرية لحنة العريس:

قبل عملية التحنية يذهب العريس وأصحابه إلى الحمام في جو مليء بالمرح والغناء، وهذا أمر واجب وركن أساسي في هذه الليلة.



وللاستحمام دلالات كبيرة حيث يعتقدون أن استحمام العريس في الحمام رمز للإخصاب فبخار الماء الساخن يساعد على أن تنجح العملية الجنسية.

ووجود العلاقة بين الماء والإخصاب هي رمز للتكاثر، كما أنه نفس الاعتقاد كان يجري في الثقافة النيوليتية لقد كان الماء رمزا للتكاثر وجريان الحياة. وهو يساعد أيضا على الإخصاب

فالحمام مكان يوحي بالإثارة الجنسية وهو تحضير للفعل الجنسي فهو في نفس الوقت مقدمة وخاتمة الأعمال الجنسية. وهناك ترابط بين التطهر والجنسانية. كما تمثل دوره في تخفيف التوترات الجسدية والنفسية الناجمة عن الفعل الجنسي (السحيري، 2000، صفحة 21).

فيكون الاستحمام في هذه الليلة أسلوب للتغلب على القلق والاضطرابات حيث يقوم بامتصاص القوى الغامضة وبهذا يمكن للإنسان معاودة التحكم في جسده والسيطرة عليه.

حلمة رزايقية - فاطمة رزايقية

بعد الانتهاء من هذا المرسوم يرجع العريس وأصحابه إلى مكان الحفل فيجلسون في مكان مخصص لهم مرتب ومزين، محضرين لهم وجبة العشاء.

2.3. الممارسات ودلالاتها أثناء الحنة:

وبعد الانتهاء من العشاء تأتي أم العريس ومعها مجموعة من النساء حاملين صينية الحنة لكي يحنوا للعريس، وهذا بعد أن حضرته أمام العروس ومجموعة من النساء لكي تكون العروس مطمئنة على حنة زوجها من الشرور التي قد تلحقها إحدى الفتيات له بسبب الغيرة مثلاً. وتستعمل نفس أدوات حنة العروس من شموع وصحن، ماء الزهر المتبقي...



والأم تحضر حنة ابنها تردد بمعية النسوة بعض الأغاني وعيونها تذرف دموعاً تعبيرا عن فرحها. ثم تخرج ومعها النسوة إلى مكان تواجد العريس وأصحابه والجو مليء بالزغاريد وأصوات البارود. حيث تبدأ الأم بالتحنية لابنها فتخضب له أصبع الشهادة ويحني معه أصحابه على عكس حنة العروس التي تحني بها إلا العروس، وهذا للبركة بحنة العريس واعتبارها فأل خير للعزاب بأن يتزوجوا بعده. فمن بداية التحنية إلى نهايتها وكلها زغاريد وغناء.

1.2.3. الأغاني الشعبية ودلالاتها في حنة العريس:

كما ورد على لسان إحدى النسوة بعض الأغاني التي تغنيها في بعض الحفلات:

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة

محمد محمد وصلوا يا الامة عليه

احبينا ورسولنا يريح من صلى عليه

الحنة يا الحنينة في طبسي البلار

يخني بيها وليدي والصلات على النبي المختار

الحنة يا الحنينة جابوها التجار

يخني بيها وليدي عينين لغزال

وليدي يا برنوس لحرير

وسعد اللي قساتو ما يتبدل وما يتحول

وما تنقص سومتو

كما تردد النسوة كذلك أغاني أخرى من قبيل:

الحنة اللي طلعت ضاوية

اجملوا يا حبابو الشتلة غالبا

أمي يانا الحنة نضرت في يدو

ويخني لعريس في حرمة خاوتوا وجدادوا.

2.3.3.. الممارسات ودلالاتها بعد حنة العريس:

وبعدها ترجع الأم ومن معها فتخبأ ما تبقى من الحنة وكل ماله علاقة بذلك وتحرص عليه حرصاً

شديداً.

وهذا مخافة أن تتعرض حنة العريس إلى بعض الممارسات السحرية ومن بينها ما يعرف ب:

"الربيط" والمقصود به هو ربط أحد الأعضاء التناسلية، وهو ممارسة يقوم بها "الطلبة" والمشعوذون "المنع الرجل أو المرأة من أداء دوره الجنسي ليلة الزفاف" (عبد السلام، صفحة 105).

حلمة رزائية - فاطمة رزائية

فالربيط يكون عن طريق الحنة أو عن طريق ممارسات أخربائنا التحنية، ومن أشهر الطرق انتشارا في المنطقة، طريقة يستطيع أن يقوم بها أي شخص، كأن تنادي العريس باسمه بعد أن يكون المنادي قد فتح مقصا فما أن يجيب العريس بنعم يغلق الفاعل ما أحضره.

ومن بين طرق علاج هذا النوع من السحر على حد قول أحد المخبرين هو أن يأخذ المريض (المربوط) كأسا فيه كمية من "الفاسخ" (عبارة عن نبات وهو أنواع) مع قليل من العسل، ويخلط جيدا يأكل منه كل صباح على الريق أي قبل أن يشرب القهوة لمدة أسبوع ويفك الربط بإذن الله.

بعد هذا الجانب المظلم من الممارسات السحرية والتي ليس من السهل فهمها وفك رموزها في مجتمع مازالت تحكم سلوكياته بعض الأساطير والخرافات أي أننا في هذه الناحية لم نجد تجاوبا مع استفساراتنا حول هذه الممارسات، سوف نعود بكم الآن إلى جو يسوده الفرح والبهجة.

فبعد الانتهاء من عملية التحنية يبدأ أصحاب العريس في تقديم الهدايا عن طريق التبراح (***) بعرض الهدايا المقدمة للعريس والمتمثلة غالبا في مبالغ مالية وتسمى محليا "بلحسوب".

ولهذه الممارسة عدة أبعاد في المنطقة، الأول هو أن الهدايا المقدمة للعريس بمثابة إعانة له لقضاء مصالحه بعد العرس أو لتعويض جزأ مما ضاع في مصروف العرس.

أما الثاني فيجعل منها فرصة للتباهي والتفاخر بما لديه من مال.

4. الخاتمة:

تعد ليلة الحنة ليلة مهمة وفاصلة في حياة العروسين، لأنها تحمل في مضمونها كثيرا من المدلولات الاجتماعية والثقافية وكذا النفسية على حد سواء، إذ تسهم في تهيئة العروسين لليلة مفصلية مهمة في حياتهما ألا وهي (ليلة الزفاف)، وما يسبقها من مراسيم كانت تمتد في الماضي القريب لأيام متتالية إذ لكل ليلة منها معانيها ومدلولاتها الرمزية الخاصة بها، إذ لا يقتصر معنى هذه الليلة في وضع هذه المادة في يد العروسين، وإنما في الحقيقة تتجاوز مدلولاتها التزينية إلى أبعد من ذلك.

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة

أي بما يتأتى عنها من معان اجتماعية وثقافية ونفسية على حد سواء، وهذا ما كان على المجتمع فعله في تهيئة العروسين اجتماعيا ونفسيا لهذه المرحلة الجديدة من حياتهما، بما تحمله من تحولات عميقة، لا ترتبط بحدوث تغيرات جوهرية في طبيعة الأدوار الاجتماعية للعروسين اللذين يسعيان لتشكيل أسرة جديدة، وإنما الأهم من هذا ما ستحمله ليلة العرس والدخلة.

فهي ليلة مفصلية كونها ترتبط بحدوث تغيرات اجتماعية وفيزيولوجية، وما قد يتأتى عنها من تحولات وما قد يتأتى عنها من تحولات نفسية في حياتهما، ولعل أخطرهما ما قد تتعرض له العروس من ضغوط نفسية وتشوش ذهني جراء ليلة الدخلة التي تعد مفترقا ما بين العزوبة بفضائها الحر الواسع والزواج بمتطلباته اليومية والواجبات المتأتية عنه لدى الطرفين.

فالحنّة بوصفها ليلة سابقة للعرس تتجاوز في معانيها المظاهر الشكلية إلى وظائف كامنة أهم وأسمى وهي وظائف التهيئة (النفسية، الروحية والاجتماعية) للعروس في أولى مسيرتها إلى عش الزوجية للعيش ضمن جماعة جديدة.

لعل هذه المسافة الصغيرة الفاصلة، ما بين العزوبة والزواج، تشكل العروسين حالة من الهواجس المتناقضة ما بين الفرح تارة والحزن والخوف تارة أخرى. فإنها ليلة تحتوي على وظائف ومدلولات كامنة تمثلت في إعداد العروسين وتجهيزتهما نفسيا واجتماعيا لمرحلة جديدة من حياتهما.

فالممارسات التي تخص الحنة تنال ما تنال من أهميتها البالغة في منطقة حمام النبائل، في أنها تتجاوز حدود الفسيفساء التجميلية التي تزين ظاهريا يد العروس والعريس، لتأخذ بعدا اجتماعيا وثقافيا فريدا في نسق العادات والتقاليد الاجتماعية للمنطقة، والتي تشكل مع باقي الأنساق كلا متكاملا يهدف إلى الوجود الفعلي للمجتمع.

فاتخذت الحناء في هذه المنطقة عدة مدلولات أولها المدلول المادي الذي ينم عن استعمالها كزينة ومدلول معنوي وصل إلى درجة الاعتقاد بأنها مادة تطهيرية لدرء الحسد، وإبعاد العين الشريرة، وإثارة العواطف.

حلمة رزائية - فاطمة رزائية

كما أصبحت الممارسات التي تدور حول الحنة ملازمة لأهل المنطقة في احتفالاتهم بشكل تلقائي. ومن هنا فإن هذه بعض الجوانب التي استطعنا التوصل إليها من خلال الممارسات التي لاحظناها عند استعمال الحنة في العرس وفك بعض الرموز التي تحيط بها وإعطاء دلالاتها ومعانيها من خلال ممارستها والفاعلين فيها.

إلا أننا وعند نزولنا إلى الميدان تعرضنا لعدة جوانب أخرى ذات علاقة بالموضوع ولها من الأهمية في أن تدرس بشكل مستقل وأن تأخذ حقها من البحث والتقصي، ومثال ذلك المواضيع التي لها علاقة بالسحر والشعوذة في العرس، فهي مواضيع تستدعي الدراسة وخاصة في مثل هذه المناطق، ونأمل أن تكون مواضيع لدراسات جادة.

تقترح الدراسة اهتمام الباحثين والمفكرين بالدراسة والتعمق لمثل هذه الممارسات التي تجسد ثقافة المجتمع، كما تقترح الدراسة نبذ الطقوس السلبية وتشجيع الايجابية منها.

5. قائمة المراجع

بالي وحيد عبد السلام. (بلا تاريخ). الصارم البتار في التحدي للسحرة الأشرار (المجلد 10). الجزائر: مكتبة الإمام مالك.

صوفية بن حنيرة السحيري. (2000). الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الإعتقادات والتصورات حول الجسد (المجلد 1). تونس: دار محمد علي للنشر.

عبد الغني عبد الله غانم. (2004). قراءات وتطبيقات في طرق البحث الأنثروبولوجي (المجلد 1). الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

عمد هاني. (بلا تاريخ). حلقة العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية، في الوطن العربي.

طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة فوزية دياب. (1970). القيم والعادات الاجتماعية (المجلد 2). بيروت لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

محمد الشيخ. (2005). جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد، مطارحات في الفكر الفلسفي المغربي المعاصر (المجلد 1). المغرب: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

محمد عبد الفتاح إبراهيم. (1965). الثقافات الافريقية. مصر: مكتبة الانجلو المصرية.

مفلح البكر محمود. (1995). العرس الشعبي: (الترويدة). بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام.

منصور عبد الحاتم. (1999). أضواء على القصيدة الشعبية، دراسة العرس كظاهرة مهرجانية (المجلد 1). دمشق: دار عشتروت للنشر.

نورالدين بن مشرنن. (2000/1999). عادات الزواج والإنجاب في تلمسان، روافدها ووظائفها. تلمسان.

للإحالة على هذا المقال:

حليمة رزايقية، فاطمة رزايقية، « طقوس التحنية في العرس، ممارسات ودلالات: دراسة أنثروبولوجية في منطقة حمام النبائل بقالة، الجزائر ». الفكر المتوسطي، المجلد: 12، العدد: 02، مارس 2024، ص. 202-224

(*) حمام النبائل أو حمام النبائل، دائرة تابعة لولاية قالة، تقع في الشرق الجزائري، تمتلك منطقة حمام النبائل مجموعة من الخصائص الطبيعية والتاريخية والاقتصادية وكذا الثقافية، جعلت من سكانها يحافظون على إرثهم الثقافي وعاداتهم وتقاليدهم، رغم التغيرات الحاصلة على مختلف المجالات.

(**) البراح هو شخص يتمتع بصوت عال ويتعالى صوته كلما اعطاه واحد من أصحاب العريس هديته معلنا عن قيمتها خاتما كلامه بدعوة خير له كأن يقول: كثر خيرك نفرح و نردّلك.